

أحمد الواسطي
أبعاد التأثيرات الفكرية والأدبية
على العقلية اليهودية في الجزيرة العربية

المقدمة:

تأثرت العقلية اليهودية في المجالات الفكرية والأدبية بالمسلمين في الجزيرة العربية، حيث نجد هذا التأثير واضحاً وجلياً على نتاجات اليهود اللغوية والأدبية، التي أخذت تحاكي فيها الأساليب اللغوية والأدبية للمسلمين، هذا فضلاً عن تأثرها بالآداب الأوروبية. ويحاول اليهود من خلال وسائلهم الإعلامية، وما يألفون من كتب ونشرات أن يظهر ما كانتهم الفكرية والأدبية، ويجعلوا من الجزيرة العربية أرضاً يهودية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يحاولون ربط دورهم التاريخي بدور إبراهيم الخليل عليه السلام، مع العلم بأن الجزيرة العربية طوال التاريخ لم تكن أرضاً يهودية، كما أن دورهم كان متأخراً كثيراً عن

دور إبراهيم الخليل عليه السلام.

مُنح اليهود صفة (أهل الكتاب) أو (أهل الذمة) عندما انتشر الإسلام، حيث أصبحت الدولة الإسلامية مسؤولة عن سلامتهم، فأخذوا بعلمهم المسلمين، وألقوا - للمرة الأولى في التاريخ - كتب النحو ومعجم الألفاظ تقليداً للمسلمين العرب، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل نجد أن الشعراء اليهود قرؤوا الشعر العبري وفقاً للأبجد الشعرية المألوفة في اللغة العربية. وتناولت فنون الشعر العبري في ذلك الوقت جميع الأغراض المعروفة في الشعر العربي كالمديح، والهجاء، والفخر، والثناء، والحكمة، والوصف ...

فالشاعر اليهودي يهوذا الحريزي يقول في المدح:

لليقي كل ياقار نافية في نلفيه في هولفيت بئير عل روش مشيحاف^(١)
أي: لصاحبنا اللاوي احترام ورفعة، فقد بات اكليلاً على الشعراء
كما نجد أن الشعراء اليهود، حاكوا الشعراء العرب في النظم العلمي والتعليمي، وفي نظم الأحاجي والألغاز^(٢).

ولم يؤلف اليهود كتباً علمية في قواعد لغتهم إلا بعد أن تتلمذوا على يد المسلمين العرب، ونشأوا في عهد الثقافة الإسلامية نشأة مكنتهم من فهم العلوم العربية على اختلاف أنواعها.

فظهر سعيد بن يوسف الفيومي فيلسوف اليهود في القرن العاشر^(٣). وكان أوّل النحاة العبريين، الذين وضعوا قواعد النحو العبري على غرار قواعد اللغة العربية وليس هذا فحسب، بل أخذ الكثير من العلوم الدينية، وتشرّبت روحه بمذهب «المعتزلة»، ويظهر هذا التأثير جلياً في معالجته الديانة اليهودية، ويعده النحاة اليهود أبا النحو العبري.

ونقل اليهود إلى لغتهم العلوم الإسلامية كاللاهوت، والطب والفلسفة،



وغيرها من أمثال كتب ابن سينا، «تهافت الفلاسفة» للغزالي، و«تهافت التهافت» لابن رشد.

ويقول الناقد (يهوذا الحريزي) بأسلوب حماسي: «إعلم أن الشعر البديع الحافل بالآلئ قد كان في بادئ الأمر ملكاً مقصوراً على أبناء العرب المسلمين وحدهم، وقد وزنوه بموازين صادقة، وهم يفوقون في شعرهم شعراء العالم قاطبة... ومع أن لكل أمة شعراءها، فإن جميع شعرهم لا قيمة له، ولا وزن في مقابل شعر الإسماعيليين (أي المسلمين العرب) لأنهم - وحدهم - المستأثرون بالشعر العذب في لفظه، الجميل في فحواه ومعناه.

ثم يضيف الناقد العبري الحريزي، متحدثاً عن تأثير الشعر العربي في الشعر العبري بقوله: إن بني شعبنا بعد جلائهم عن أرض كنعان، قد قطن الكثيرون منهم مع العرب المسلمين في أوطانهم، وألفوا التحدث بلغتهم، والتفكير بتفكيرهم، وبامتزاجهم بهم تعلموا منهم صناعة الشعر الموزون في اللغة العبرية...»^(٤).

والجدير بالذكر أن الشعراء اليهود عرفوا الأساليب البلاغية المألوفة آنئذ عند العرب المسلمين، التي بها كانوا يزينون قصائدهم ويحلّون أشعارهم. كما أن «بني إسرائيل» أول من دان باليهودية، لكنهم لم يكونوا وحدهم اليهود حتى في زمانهم^(٥). ولم تعرف باسم (اللغة العبرية) إلا بعد السبي البابلي^(٦). ولما استوطن (بنو إسرائيل) أرض كنعان، وعرفوا المدينة والحضارة، صاروا ينفرون من كلمة (عبري) التي كانت تذكرهم بحياتهم الأولى حياة البداوة والحشونة، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا باسم (بني إسرائيل) فقط^(٧).

ولا يوجد في صحف العهد القديم ما يدلّ على أنّهم كانوا يسمّون لغة (بني إسرائيل) (باللغة العبرية)، بل كانت تارة تعرف باسم اللغة اليهودية: «يهوديت»

كما هو واضح في [سفر اشعيا] (٨).

دَقِيرْنَا إِلْ عَقَادِيمَا أَرَامَيْتِ كَيْ شِمْعِيمِمْ أَنْحُنُو قِي أَلْ تَدَبِيرِمْ إِبْلِينُو يَهُودِيْتِ
بَأُزْنِيَهْ هَاعَامِمْ أَشِيرِمْ عَلْ هَحُوْمَا.
ويعني: كَلَّمْ عَيْدِكِ بِاللُّغَةِ الْأَرَامِيَّةِ وَلَا تَكَلِّمْنَا «بِاللُّغَةِ الْيَهُودِيَّةِ» فِي مَسَامِعِ
الشَّعْبِ الَّذِي عَلَى السُّورِ.
وتارةً تعرف باسم (لغة كنعان): (٩)

بِيَوْمِ هَهُوَا يَهْيُوْ حَامِيْشِ عَارِيْمِمْ بِإِيْرِصِمْ مِضْرِيْمِمْ مِدْقُرُوْتِ سِفَتْ كِنَعْنَ قِي
نَشْبَاعُوْتِ لِيَهْقَا صِقَاءُوْتِ عِيْرِ هَهِيْرِسِمْ يَأْمِيْرِمْ لِإِحَاتِ.
ويعني هذا النص: كان في ذلك اليوم بأرض مصر خمس مدن تتكلم (بلغة
كنعان)، وتحلف برب الجنود، وتسمى إحدى هذه المدن مدينة الشمس.
ولقد كشفت في (تل العمارنة) بمصر رسائل يرجع تاريخها إلى القرن الرابع
عشر (ق.م)، وإلى عصر الملك (أمون حوطف)، حيث كان «بنو إسرائيل» لا
يزالون تحت سيطرة (مصر)، فقد ذكرت هذه الرسائل الموجهة من أمراء فلسطين
والكنعانيين إلى عزيز مصر، أن قبائل (عبيري) أو (حبيري) تغزو فلسطين
وتتوغّل من ناحية الصحراء في بلاد خاضعة للنفوذ المصري، ويطلبون منه
النجدة (١٠).



قلعة خيبر

وبقيت عقلية (الأديب الإسرائيلي) مطبوعة بطابع الصحراء في عصور الحضارة؛ لأنّ علاقة «بني إسرائيل» بأمم الصحراء لم تنقطع في عصر من العصور، ولا شك أن عادات «بني إسرائيل»، وأخلاقهم الاجتماعية في عصورهم الأولى كانت متأثرة بأخلاق وعادات العرب في الجاهلية، وأن كثيراً من أسماء الأعلام العبرية القديمة شائعة الاستعمال عند العرب في الجاهلية مثل:

(عوقُديا) وتعني: عبد الله و (سَعُديا) تعني: السعد و (عفرا) تعني: عفراء^(١١).

المصطلح العبري:

كان مصطلح (العبري) أو (العبراني) يطلق في نحو الألف الثانية قبل الميلاد، وفيما قبل ذلك على طائفة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب، وغيرهم من الأقوام العربية، حتى صارت كلمة (عبري) مرادفة لابن الصحراء أو ابن البادية بوجه عام^(١٢).

وقد ورد اسم (عبريو) في ورقتين من أوراق البردي كُتبتا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وفي عهد ملك مصر (رمسيس الثاني) من الأسرة التاسعة عشرة، الذي حكم من سنة ١٢٩٢ إلى سنة ١٢٢٥ ق.م موجودتين في متحف لايد في هولنده^(١٣). غير أن (جون أ. هامرين) يحسم هذه المعلومة في المجلد الثاني من مصنّفه الضخم (تاريخ العالم)^(١٤) بالقول: «إنّ الاعتقاد بكون «الخبيرو» أو «العبريو» هم ذاتهم عين العبريين قد ظلّ لُزمن طويلاً يؤيده ذلك التشابه في الأسماء، بيد أنه من العسير علينا القول بهذا الرأي لعدم وجود شواهد تؤيده». ويستدل (هامرين) في تدعيم رأيه بما ذهب إليه الأستاذ (واردل) Prof [Wardle] في مصنّفه الحديث (إسرائيل وبابل) [Israel and Babylon] بشأن القلاقل التي سببتّها قبائل «الخبيرو» التي هاجمت فلسطين خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، فاستنجد أمراؤها الذين كانوا خاضعين بالاسم لمصر بالفراعنة، الأمر الذي سجّلت وقائعه ألواح (تل العمارنة) المشهورة من سياق رسائل بلاطي (امنحتب الثالث) و (امنحتب الرابع) (اخناتون) أي: من ١٤٠٠ - ١٣٦٠ ق.م) على وجه التقريب حين ذكر (واردل) أن مجيء الغزاة من الصحراء



كان من الحوادث المألوفة في تاريخ فلسطين القديم، وذكّر أن (الخبيرو) لم يكونوا عبرانيين، حيث كانوا أكبر بكثير من الشعب العبري (١٥).

دور إبراهيم الخليل عليه السلام يسبق دور اليهود:

يمكن تحديد عصر إبراهيم عليه السلام وفقاً لسير الأحداث التاريخية، والموافق للمنطق الحسابي العقلي بالعام ١٩٥٠ ق.م - تقريباً - مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة التوقف لحظات عند مسألة تحديد تواريخ الأحداث القديمة، التي لا بدّ من أن يقال عنها: إنّها تقريبية إلى أبعد الحدود، وقد أفرد العالم الألماني المعاصر (كورت مارك) [Kirt W.Marek] فصلاً طويلاً لمناقشتها في كتابه المنشور عام ١٩٥٥ بعنوان Lesectetdes Hittespon «أسرار الحِيثيين» نجتزئ منه هذه الفقرة من الفصل الثامن «علم التواريخ»: (١٦)

«إنّ أول عام حُدّد لابتداء التاريخ المصري، وهو تأسيس أوّل سلالة من قبل الملك مينيس (ميناء) الذي حقّق وحدة مصر، قد جرى تعديله على التوالي، وخلال قرن واحد من الزمن وعلى مرّ الاكتشافات الجديدة، فقدّم من العام ٥٨٧٦ ق.م إلى العام ٢٩٠٠ ق.م ومع ذلك ليس هناك أي برهان على أن هذا التاريخ الأخير صحيح ونهائي».

وفي ضوء ما يقوله «ب مونتّي» P.Montet ودانييل روبس Daniel Rops وغيرهما من المتخصصين (١٧) بشأن تواكب حركة الهكسوس نحو مصر في القرن السابع عشر ق.م مع وصول يوسف وآله، وأنه في مدينه «أفاريس» بالدلتا، استقبل عاهل هكسوسي يوسف وأخوته استقبالاً حسناً.

كما نجد أنّ بعض الباحثين يغالطون أنفسهم بربط تاريخ بني إسرائيل بميلاد إبراهيم أبي الأنبياء - عليه وعليهم السلام -، أي مع منتصف القرن العشرين قبل

الميلاد، بينما يربط عدد آخر من الباحثين تاريخ «بني إسرائيل» بموسى ﷺ وهو خطأ آخر جسيم، كذلك رأينا فريقاً ثالثاً يرجع تاريخ اليهود إلى زمن الأكديين بالعراق، في حين نجد فريقاً رابعاً يجعل تاريخهم مواكباً لتلك الدفقات البشرية السامية (نسبة إلى سام بن نوح)، التي خفق بها قلب الجزيرة العربية في صورة هجرات متعاقبة إلى أطراف الجزيرة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً.

وهذه الآراء جميعها على خلاف السياق المنطقي لتسلسل أحداث المنطقة، وخلافاً لما أثبتته الأحافير الأثرية الحديثة. والمجدير بالذكر ما أفاده الدكتور سوسه^(١٨) بأن كتبة التوراة إنما عمدوا إلى إهمال التسلسل الزمني؛ ليسهل عليهم ربط تاريخهم بعهود قديمة سبقت وجودهم، فأدخلوا التشويش على ذهن القارئ؛ بحيث أصبح تائهاً بين العصور، فلا يدري أي يد تاريخ اليهود مع عصر إبراهيم، أم يواكب عصر موسى، ويشوع بن نون تلميذه، وخليفته على بني إسرائيل، أم من زمن الهجرات السامية العربية، أم من عصر الأكديين؟!

فالحقيقة أن كل عصر من هذه العصور يتميز عن العصر الآخر تميّزاً واضحاً، فاليهود أتباع موسى ﷺ ظهوروا خلال القرن الثالث عشر ق.م، والأكديون ظهوروا قبل عصر موسى بنحو ألفين وسبعمئة عام، حينما نزحوا من جزيرة العرب إلى شواطئ الفرات حوالي (٤٠٠٠ ق.م) بينما ظهر إبراهيم الخليل في منتصف القرن العشرين قبل الميلاد، أي أن المساحة الزمنية التي تفصله عن عصر موسى تصل لسبعة قرون تقريباً. كما أن الهجرات السامية من قلب الجزيرة إلى أطرافها سبقت وجود اليهود على ظهر البسيطة بنحو ألفي عام، ومن هنا جاء تأكيد العقاد^(١٩) على أننا إذا فتشنا عن نسبة لإبراهيم لم نجد أصدق من النسبة العربية، كما كانت العربية يومئذٍ بين الجزيرة العربية وبقاع الهلال الخصيب، فلا يقال: عن إبراهيم إنه إسرائيلي؛ لأن يعقوب هو أول من تسمى بـ(إسرائيل)،



ويعقوب حفيد إبراهيم. ولا يقال: عن إبراهيم: إنه يهودي؛ لأن اليهودي ينسب إلى (يهوذا) رابع أبناء يعقوب. ولا يقال: إنه عبري إذا كان المقصود بالعبرية لغة مميزة بين اللغات السامية، تتفاهم بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف، فإن إبراهيم كان يتكلم بلغة يفهمها جميع السكان في بقاع النهرين وكنعان، ولم تكن العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية في تلك الأيام. وقد يقال عنه: إنه سامي ينتمي إلى سام بن نوح، ولكنها نسبة إلى جدّ وليست نسبة إلى قوم^(٢٠). لذا فإن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً قطّ ولا نصرانياً كما يدّعي المدّعون، وما زعم «بني إسرائيل» بأنه يهودي، وأنهم على دينه يخالفون النصارى الذين زعموا ذات الزعم، فنزلت فيهم كلمة الله الفصل ببطلان قولهم أجمعين، حيث إن التوراة نزلت من بعده بنحو سبعمائة عام، والإنجيل من بعده بنحو تسعمائة وخمسين عاماً. وعليه فما كان لليهودية أو المسيحية وجود في عهده عليه السلام، ففيم هذه الحاجة في شأن إبراهيم، وهو الذي مال عن الأديان والعقائد الوثنية كافة إلى الدين القيم مسلماً موحداً غير مشرك بالله، قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾ • ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون • ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴿ (٢١).

ثم تستطرد الآيات الكريمة القول بأن أحق الناس بإبراهيم عليه السلام أولئك الذين اهتدوا برسالته، واتبعوا نور دعوته في زمانه، وهذا النبي محمد ﷺ: النبي الأمي لموافقته له في أكثر شرعه والذين آمنوا من أمته، هم الذين ينبغي أن يقولوا نحن على دينه لا أنتم. والله ناصر المؤمنين وحافظهم: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ (٢٢).

فإبراهيم عليه السلام بعث في بيئته كانت لها صلة وثيقة بنوح عليه السلام، حيث إن المنطقة التي بعث فيها هي منطقة نوح عليه السلام.
 أما هجرته عليه السلام فكانت لأسباب وأهداف سامية، حيث واجه الظروف نفسها التي واجهها الرسول صلى الله عليه وآله عند هجرته من مكة المكرمة.
 وقد هاجر عليه السلام من العراق الى الشام، وعندما يربّ به الناس وهو في الطريق الى اليمن والشام يدعوهم الى الإسلام (٢٣). وتؤكد التوراة بكلّ وضوح أن إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر من العراق بمفرده، ولم يكن لليهود وجود في العراق في عصره، ذلك أنّ دعوة الربّ لإبراهيم الخليل عليه السلام كانت موجهة إليه بمفرده، وهي أن يهجر أرض العراق، فذهب ومعه ساراي زوجته ولوط ابن أخيه: (٢٤)

- ١- قيومر يهقا إل أقرام ليخ ليخا مي أرصنحا
 أو ممولدتنحا أو مبيت أفيخا إل ها أرص
 أشير أرنيخا
- ٢- قي إيعشخا لگوي گدول قارقار فخا قأكدلا
 شميخا قي هيه براخا
- ٣- قأقارخا مپارخيخا أو مقللخا أاور
 قي نقرخوا قخا كل مشبحوت ها آداما



٤- قِيلِخْ أَقْرَامُ كَأَشِيرِ دِپِيرِ إِیْلَاقِ يَهْفَا
 قِيلِخْ إِتْو لُو ط قِي أَقْرَامِ بِنِ حَامِيشِ شَانِيمِ
 قِي شَقْعِيمِ شَانَا بَصِيْتُو مِيحَارَانِ
 ٥- قَايِقِحْ أَقْرَامِ إِتْ سَارَايِ اشْتُو
 قِي إِتْ لُو ط بِنِ أَحِيْفِ

ويعني هذا النص:

١- وقال الرب لإبراهيم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك إلى الأرض التي سأريك. ٢- فاجعلك أمة عظيمة وأباركك، وأعظم اسمك. ٣- وأبارك مباركك، والعن لاعنيك، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض. ٤ و ٥- فذهب إبراهيم كما قال له الرب، فأخذ معه ساراي زوجته ولوطاً ابن أخيه. وكان عمره خمسة وسبعين عاماً لما خرج. ولم يكتفِ اليهود بأن عدّوا العراق وطنهم الأصلي، بل ربطوا تاريخهم القديم بجزيرة العرب، بدعوة أن اليهود هاجروا من فلسطين إلى جزيرة العرب، بعد تشريدهم على يد الرومان في القرن الأول للميلاد. وعلى هذا الأساس عدّوا شبه جزيرة العرب أرضاً يهودية طوال التاريخ، وغور الأردن هو الذي يفصل أرض إسرائيل الشرقية عن الغربية. هذا ما يلقنونه لطلاب الجيل الجديد من عرب ويهود في كتبهم المدرسية في إسرائيل (٢٥).

الهوامش :

- (١) د. ربحي كمال: الأدب العبري : ٤٢٠ .
- (٢) المصدر نفسه .
- (٣) د. ربحي كمال : قواعد اللغة العبرية : ٤١-٤٢ .
- (٤) يهوذا الحريزي : كتاب تحكومي : ٩٨ .
- (٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٣٩ .
- (٦) مصنفات المؤرخ اليهودي يوسف : ٩٨ .
- (٧) د. اسرئيل ولقنسون : تاريخ اللغات السامية : ٣٨ .
- (٨) سفر أشعيا : ٣٦ : ١١ : ص ٦٧٠ الأصل العبري .
- (٩) سفر أشعيا : ١٩ : ١٨ : ص ٦٥٢ الأصل العبري .
- (١٠) د. اسرئيل ولقنسون ، تاريخ اللغات السامية : ٢٨ .
- (١١) المصدر نفسه .
- (١٢) المصدر نفسه .
- (١٣) محمد عزة دروزة ، تاريخ بني اسرئيل من أسفارهم : ٣١ .
- (١٤) (جون أ. هامرين) ، ج ٢ الباب الخاص بفلسطين .
- (١٥) محمد عزة دروزة ، تاريخ بني اسرئيل من أسفارهم : ٣٢ .
- (١٦) سهيل ديب ، التوراة تاريخها وغاياتها : ٨٩ .
- (١٧) موريس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) : ٢٥٥ .
- (١٨) د. أحمد سوسه ، العرب واليهود في التاريخ : ٢٢ .
- (١٩) عباس محمود العقاد ، إبراهيم أبو الأنبياء : ٢٨٩ - ٢٩٠ .
- (٢٠) المصدر نفسه .
- (٢١) آل عمران : ٦٥ - ٦٧ .
- (٢٢) آل عمران : ٦٨ .
- (٢٣) العلامة المجلسي ، بحار الأنوار ١٢ : ٢٤٥ - ٢٤٦ .
- (٢٤) سفر التكوين : ١٢ : ١ - ٥ الأصل العبري : ص ١٦ .
- (٢٥) بابوريش ، اسرئيل معالم البلاد وجغرافيتها (للفص الثاني) : ١٢٧ - وعزرا حداد وإلياس دانيال ، التاريخ (للفص الخامس) : ٢٠٠ .